الخطر الذي يهدد المدنية

هل تنتهي الحرب بانقراضها ؟

لنقولا الحداد

ما هي الرذيلة التي نعني ؟

في حياة الأمم جماء في طمأنينة ، وفي الفردوس الذي ينشئهُ العلم ويوسعه على توالي الأيام هذا الفردوس في خطر عظيم من أفعى الفساد وشيطان الشر اللذين أوغلا فيه وطفقا يقتلعان أشجاره ويلفحان أزهاره ، ويتلفان ثماره . فاذا لم يضرب ملاك الخير بسيفه عنقيهما تركاه خراباً يباباً . ومن يدري ان كان الله يفرض بعد ذلك فردوساً ثانياً ويحيل من رآه آدماً جديداً يعيش فيه عيشة راضية

وكان أنه لما أسف الناس في الشر لعهد نوح أغناهم الله بطوفان ماء . فهل هو مغنيهم الآن بطوفان نار ؟

رأينا العلم الحديث ينشىء على سطح الكرة الأرضية برّاً وجوّاً وبحراً فردوساً غضّ الشجر ، يانع الثمر ، عاطر الزهر ، عذب النمر ، ناعم الأديم ، رطب النسيم — هو النعيم الذي كان يتوخاه عقل الانسان ويشتاقه قلبه وتطيب به نفسه ، فما باله انقلب جحيماً تجري من تحته أنهارٌ من دم تمخر فيها من الدبابات أساطيل وترمي أهله بغارات سحائبه بحجارة من سجّيل . أكان العلم شيطاناً رجيماً ؟ وكان معمله للناس جحيماً ؟ كلاّ بل العلم ملاك كريم . وانما قلب الانسان زنيم لئيم . إذن أين مصدر الخطر على جنة المدنية الجديدة ؟

مصدر الخطر في قلب الانسان نفسه . أتتهُ المعرفة مزدوجة — معرفة الخير ومعرفة الشر . فاختار معرفة الشر . جعل العلم الذي كانت رسالته منح الهناءة للناس أداة للشر والشقاء . فالعلم الذي أنشأ الفردوس هو نفسه الآن يدمر هذا الفردوس ، فليت آدم بقي عرياناً جاهلاً — لينهُ لم يمتد على شجرة معرفة الخير والشر

***

مررت أمس بكبير مصارف (بنوك) العاصمة فرأيته مدثراً بأكياس الرمل الى عنقه ، تحامياً لشظايا قنابل الطائرات . ثم مررت بمعبد فرأيته عارياً من هذه الحصانة الرملية . ثم مررت بمعهد فاذا هو محاطٌ بسلسلة من تلك الأكياس . فقلت : يا لله ! هل صار المالُ اعزّ من الانسان وأغلى؟ سبحان الله ! المال الشر الحرب يخاف على نفسه من كوارث الحرب : — أجل ان هيكل المال مهددٌ بالدمار شأن البيت المبني على الرمل سريع الانهيار

ان هذه المدنية غنية بالاختراعات . ولكن نفس اختراعاتها تحطم أدواتها . وغنية بالترف والبذخ ، والترف والبذخ يحدران اخلاقها حتى الموت . وغنية بالمال ، والمال أخبث الشهوات فسام مدنيته الكوارث والنكبات . وغنية بالمعرفة ، والمعرفة ابتدعت الآلات تدميرها

اذن هذه المدنية كاذبة لانها تغر الانسان بالسعادة فلا يلبث ان يرى السعادة سراباً يميت صادياً في بحر من الشقاء أجاج الماء . أجل ان هذه المدنية مزيفة تحمل في اذيالها اسباب فنائها

أيحسن اذن ان يكون أملها دانياً ؟

هي الآن على مفرق طريقين عند تقاطعهما : طريق الدكتاتورية . وطريق الديمقراطية يتقاطعان الآن ثم يفترقان . وفي أحد المفرقين سلامة المدنية وفي الآخر فناؤها

ليست الدكتاتورية شراً على الاطلاق ، فقد تكون خيراً اذا كان الحاكم بأمره صالح الضمير . ولا الديموقراطية خيراً على الاطلاق ، فقد تكون شراً اذا لعب فيها شيطان الوساوس ونخرها سوس الفساد . وانما الدكتاتورية والديموقراطية رمزان او اتجاهان لنظامين يغلب في أولهما شر قلب الانسان ويغلب في الأخرى صلاح قلب الجماعة

لسوء الحظ ان الدكتاتوريات الحالية ممثلة في نفوس أشخاص يستغلون لأنفسهم قوى الجماعة بدعوى الجهاد لخير الجماعة ورفاهية الجماعة . وانما هم بالحقيقة يضحون بسعادة الجماعة وسلام العالم على مذبح شهواتهم الشخصية

سل الألماني او الايطالي بأي نعيم كان ينعم في العشرين سنة المنصرمة ؟ أبالقتير المؤلم في تقلقله وبالسل الشاق في مصانع السلاح استعداداً للحرب ؟ وبالها من حرب تقذف فيها تلك الاستعدادات الدافقة دخاناً الى السماء ، وحطاماً في الفضاء ، ومعها اشلاء الذين صنعوها . أهذا هو النعيم الذي كان الدكتاتور يمنيهم به ؟ وما هو ذلك النصر الذي كان يغرهم به اذا كانت مقدماته ذاك الجهاد المضني في المعمل وفي المصنع وفي المنجم ، وخواتيمه تلك الاشلاء المتطايرة بين الأرض والسماء والديار المدمرة في البر ، والسفن المحطمة في البحر ؟

ولعلهم كانوا يطلون النفس بنعيم ارض الميعاد التي كان موسوليني يمنيهم بها حين يقاتلون في القتال على أمل النصر . أفبعد ان يقضي شبابهم في الاستعداد ويفنى شبابهم في الجهاد يتمتعون ؟ عشرون سنة مضت وهم يشقون . فهبهم ربحوا الحرب ، فمن يبقى منهم ليكي ينعم بثمنها ؟ وماذا يبقى من نعيم ؟ سيرون بعد هذا الجهاد السيف انهم غنموا خراباً يباباً ، وان النعيم الذي دنوا منه عملاً شاقاً وأرواحاً غالية لم يكن الا سراباً . هذه هي رحلة الدكتاتورية : من الوعود الى الخيبات !

وماذا يرجى غير هذه الخيبات اذا كان الحاكم بأمره يعد صقاليك شعبه بالرفاهية على حساب شعوب اخرى . والشعوب الأخرى ليست أضعف بأساً ولا هي أقل اعتصاماً بحبل الجماعة

يتمتعوا بنتاج عملهم ، بل لكي يبرزوا السلاح الألماني الذي يستعمل لاستعبادهم . ومن تواني الشعوب تتلاشى الامم الأخرى ثم تنقرض ، كما انقرضت الوحوش امام قوة الانسان ، وتخلي سطح الكرة الارضية لكي تملأه سلالة الألمان . وهكذا تصبح بقاع الأرض في أقاصيها الأربعة ملك امة واحدة فقط . ولكن أية أمة ؟ — امة أرقاء تتحكم فيها شرذمة من الزعماء الطغاة ردحاً من الزمن الى ان يدب الشقاق بين هؤلاء الزعماء فيختصمون الى ان يقتسموا ذلك التراث العلمي وتعود السلالة البشرية الجرمانية التي هي مجموعة امم في مجموعة ممالك . ولا تلبث ان تتداولها الحروب وتبيدها الممالك وربما بقيت حثالة في زنوج مجاهل افريقيا نسيها الدمار لانها بلا وطن ولا دار . ومن يدري ان كان هؤلاء الفضلة من الانسان يستطيعون ان ينشئوا حضارة وينشئوا مدنية جديدة في ألوف القرون ، او انهم ينقرضون أيضاً ولا يبقى أخيراً من ارث ملكوت الانسان الا الضواري والحشرات . ويتجه فعل سنة النشوء والارتقاء اتجاهاً آخر لا يعلمه الا علام الغيوب . هذه عاقبة الفرض الجنوني الذي فرضناه آنفاً وانتهى به انتصار هذين الدكتاتورين الجهنميين على الديموقراطية الحقة

واذا كانت نهاية هذه الحرب انهيار الحضارة وانهيار الدكتاتورية كما هو إيمان جميع الأمم الراغبة في السلام فالأمر الذي لا ريب فيه ان السلالة البشرية ستخرج منها خروج المريض للصاب بحمى خبيثة ، منهوكة القوى مضعضعة الوجدان تستغرق نقاهتها مدة طويلة من الزمان

من هو السبب ؟

ولعل القراء يتساءلون عمن هو الجاني الأصيل في هذا الجنون الاجتماعي الويل الذي حطم فيه الانسان معالم مدنيته ودمر به جميع أسباب رفاهيته من غير ان يحسب حساب ربحه او خسارته في هذه المغامرات التي لا يمكن ان يكون الحظ فيها الا نحساً

قالوا : السبب هو معاهدة فرساي . وعندي ان معاهدة فرساي لم تكن سبباً حقيقيًّا البتة . بل كانت حجة لطغاة الالمان يتذرعون بها لغزو الانسانية . واذا كانت معاهدة فرساي السبب الحقيقي فما شأن نروج ودنمرك وهولاندا وبلجيكا في هذا النزاع ؟

لو لم تكن معاهدة فرساي قد وجدت في حوادث التاريخ لاختلق الألمان سبباً آخر لغزو الانسانية كما اختلقوا السبب في الحرب الماضية . ولم يكن ثمت من سبب لها غير رغبة طغاة الألمان ولا سيما العسكريين منهم في اجتياح العالم لكي يؤسسوا امبراطورية السورمان الجرمانية

فسبب هذه الثورة الجرمانية الجنونية هو اقلام بعض مفكريهم الهوج وأخصهم نيتشة الذي طلع على العالم مبدأ اجتماعي سليط ينقض اركان الاجتماع ويقوضها الى الأساس ، وهو تمجيد القوة وسحق الضعيف . وبعبارة اوضح هو تمجيد « تطبيق سنة التنازع الحيوانية على الهيئة

الاجتماعية في حين أن هذه السنّة تتلاشى رويداً لعلم سنة التعاون والتضامن الانسانية التي هي أساس الاجتماع . ولولاها لما كان اجتماع انساني ، ولا امتاز الانسان على الحيوان بشيء

تسمم الجرثومة الالمانية بسم السوبرمانية

فبدأ فلسفة بتشة ومن جاروه لا يختلف عن مبدإ التنازع الحيواني الاّ بأن العامل فيه العقل المفكر المختار لا الغريزة المسيرة . ولذلك هو أفظع شرًّا من التنازع الحيواني . وسلوك الألمانيين الوحشي في هذه الحرب هو أوضح برهان — لا رحمة ولا عطف ولا رفق بل جبروت وقسوة وتفظيع لاحد له ، تفظيع لا تأتيه الضواري

هذه الفلسفة النيتشية التي افتتن بها غليوم قبل هتلر وتسمم بها نظامه العسكري وقواده وجنوده حتى أخرجهم غرورهم من تحت سلطة القانون المدني بحيث يباح للجندي ان يقترف أية جريمة لأن النظام العسكري يحميه من العقوبة هي السبب الأساسي . ولذلك كانت القوة العسكرية الألمانية منذ عهد غليوم دائبة الشوق الى الحرب تتحين أية فرصة لخوض غمارها

وكان هتلر وصحبه أكثر تسمماً بهذه الفلسفة . فجاءت النازية مرض هذا التسمم الذي تفشى في الأمة الجرمانية بأسرها الاّ في جانب من عقلائها وعلمائها وحكمائها الذين أصبحوا لدى هذا الوباء النازي بلا حول ولا طول . ذلك هو السبب الأصيل لهذه الكارثة التي بليت بها الانسانية فاضطرت جميع الامم أن تضحي براحتها وهنائها وسلامها في سبيل الاحتياطات اللازمة لاتقائها وتدارك نتائجها « الدمارية » . فالنظر كم هو تأثير تفكير المفكرين في النظم الاجتماعية .. وقارن رسالات الانبياء والرسل الاقدمين بمبادىء شذاذ المفكرين والفلاسفة المتأخرين

مثل هذه المبادىء الهوجاء والفلسفات الهوجاء تخلق عذراً لتحديد حرية المفكرين والخطباء والمحررين ، ولاسيما لأن العامة ضعاف الحكم قصار النظر ضيقو الفكر . تتلاعب بعقولهم اهواء الكتّاب والخطباء كما تتلاعب الرياح بخفاف الريش والهباء . فخليق باهل التفكير والتحرير ان يرموا ابصارهم الى الاهداف التي تصيبها افكارهم وآراؤهم في النُظم الاجتماعية

القاعدة الأساسية للفلسفة الاجتماعية في اصطناع الآراء التي يراد بها ارشاد الجماهير هي ان يكون الهدف الاخير لكل رأي وفكر ادبي وخلقي واجتماعي تكتيل الجماعة وضم الجماعات وربطها برباط المصالح الاجتماعية الحقة العادلة، لا التفريق بين الافراد والامم بتمجيد العصبيات الجنسية والنعرات الوطنية . ان تمجيد الجنس والوطن كان منذ القديم والى اليوم سبب تنازع الامم وحروبها . والآن وقد اصبحت الامم على اتصال سريع فيما بينها صار في الامكان ملاشاة العصبية الجنسية في « الانسانية العليا » وافناء «الوطنية» في «الاممية العامة»

فليفكر قادة الامم المفكرون في هذه القاعدة الانسانية قبل ان يمسكوا الاقلام ويقفوا على المنابر